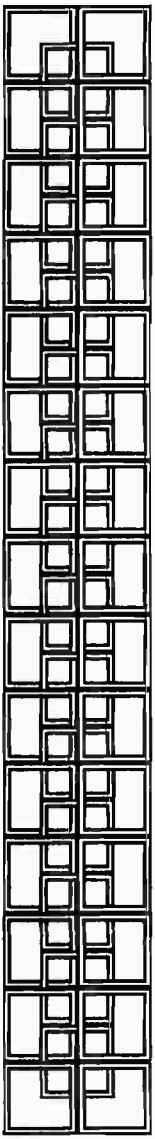

الفصل الثاني
الغايات التمكينية

الفصل الثال

الغايـات التمكينية *

ذكرنا أن الحرية أو التوحيد هي غاية غايات التربية في القرآن ، فهي خير في حد ذاتها ، وقلنا إن لها جانباً فرديا ، وآخر اجتماعيا ، الجانب الفردي فيها يعني أن يكون لكل فرد غرضه الخاص ، يفكر لنفسه ، ولا يستطيع أن يوسع ما يعرفه أو يصححه أو يعرفه بداية معرفة واعية إلا إذا قام بملاحظته ملاحظة خاصة ، وتأمله ، ثم شكّله بنفسه في إطار ما ، في ضوء مقترحاته ، واختبر هذه المقترحات . فالتفكير مسألة فردية كهضم الطعام ، ولا يفيد الجسم إلا اذا قامت أعضاؤه ذاته - الأمعاء ، والقلب، والأوعية الدموية - باعداده وتمثيله وتنقيته . ﴿ فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الالباب ﴾ (الزمر : ١٧)، ويفسره قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤا أسأت " . وهذا منبع الأصالة ، ومنبع المسؤولية .

هذا الجانب الفردي يضع للتربية غايات وسلية تمكن الفرد من الحرية ، فهو لا يستطيع أن يحقق هذه الحرية إلا إذا تحققت هذه الغايات المُمَكِّنة له أو نسميها الغايات التمكينية . وهي غايات الحفاظ على مقومات الحياة وضروراتها ، وهي غايات حفظ النفس والعقل ، وما يستلزمه ذلك من تنمية استعدادات الإنسان الفطرية مثل استعداده للعمل والتكسب ، واستعداده لجلب المصالح ودرء المفاسد .

أما الجانب الاجتماعي فيضع للتربية غايات تمكينية أخرى أساسها الاستعداد الفطري أيضا الذي وضعه الله في الانسان ليعيش في جماعات ، يتعارف ويتواصل

* الغايات التمكينية هى غايات التربية التى تؤدى الى تحقيق غاية الحرية وإحياء الفطرة فهى وسيلة اليها .

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفـوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات : ١٣) ومن ثم كان من الضروري أن تهدف التربية الى إقامة أسس تنظيم هذا التجمع في تعارفه وتواصله بما يحفظ لأفراده الحرية ، وللمجتمع نفسه السلامة والحرية أيضا ، واستلزم ذلك تحديد غايات رئيسة تمكينية يشرحها مضمون التوجيه الالهي في الآيات التالية ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (آل عمران : ١١٠) وآيات سورة الماعون ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين • فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ (الماعون : ١-٥) ، ويُتوِّجها إقامة غاية إجتماعية تمكينية أخرى ، هى بناء منظومة قيمية تحكم ذلك كله ، وهي مضمون الآية ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ، واوفوا بعهد الله إذا عاهدتهم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربي من أمة، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ﴾ (النحل : ٩٠-٩٢) .

الغايات الفردية التمكينية

تتحدد هذه الغايات الفردية بثلاثة مقومات تعتمد عليها حياة الانسان حراً ، فهو لا يمارس الحرية في فراغ ولا موات ، وليست حياته عبثا كما أشرنا إلي ذلك من قبل : أما الأول فهو السعي إذ لا بد للإنسان أن يأكل ويشرب ويلبس ، ويسكن ليعيش ، ويأمن على حياته ، فليس هناك من يوفر له ذلك إلاَّ سعيه بعد أن هبط من الجنة حيث قال الله ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعري • وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحي ﴾ (طه :

١١٨ - ١١٩) . ثم بينه في سورة قريش ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف ﴾ (قريش : ٣-٤) فمن يوفر له الطعام والشراب والمسكن والأمن إن لم يعمل بنفسه ؟ وهل يكون حراً من لا يجد طعامه وشرابه ومأمنه ؟

أما الثانى فهو التعليم للحياة وللعمل وإعمار الأرض بكل معاني الإعمار ، وما يستلزمه ذلك من تنمية قدرات ، وأبانه قوله تعالى في أول سورة نزلت من القرآن ﴿ اقرأ بأسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • إقرأ وربك الاكرم • الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم﴾ (العلق : ١-٥) ، ثم قوله في سورة الرحمن ﴿الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان﴾ (الرحمن ١-٤) ، ثم قوله في سورة الشمس ﴿ ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها ﴾ . (الشمس ٧ : ١٠) وقد أشارت الى هذه القدرات غايات الوظيفة التي حدَّدها سيدنا ابراهيم عليه السلام وإسماعيل للرسول الخاتم الذي دعوا ربهما أن يبعثه ليعلِّم الأمة المسلمة ، حيث قالا ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم • يتلو عليهم آياتك • ويعلمهم الكتاب والحكمة • ويزكيهم • إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (البقرة : ١٢٩) .

أما الثالث فهو أداء الوظيفة العامة التي رسمها القرآن للإنسان ، وهي أن يكون خليفة في الارض ، تنفيذا لقوله تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (البقرة : ٣٠) ، ثم قوله في سورة الأنعام توضيحا لهذه الوظيفة وتأكيدا ، ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات • ليبلوكم في ما آتاكم • إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (الانعام : ١٦٥) ومعناها الأعم هو أن الله استعمر الناس في الأرض ، وجعلهم مسيطرين على ما فيها ، وسخر لهم كل ما فيها ، لينظر كيف يعملون العمل الصالح النافع لهم جميعا ، ويختبرهم فيها ، ويظهر حكمه وسننه .

١- غاية تعلم الكتابة والحكمة :

" فإن نزول أول سورة العلق تمهيد للوحي المجمل والمفصل ، خاص بحال النبي صلى الله عليه وسلم ، وإعلام له بأنه يكون -وهو أمي - قارئاً بعناية الله تعالى ، ومخرجا للأميين من أميتهم الى العلم بالقلم ، أي الكتابة ، وفي ذلك استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام - التي ذكرناها توا - ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم • يتلو عليهم آياتك• ويعلمهم الكتاب والحكمه • ويزكيهم ﴾ (البقرة : ١٢٩) ، وقد فسر أغلب المفسرين، ومنهم الامام محمد عبده " الكتاب بالكتابة [١] ثم قال الإمام : هذا الدين اضطرهم الى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الأمية ، لأنه دين حث على المدنية . وسياسة الأمم ، وكان أول حاجاتهم الى الكتابة وجوب كتابة القرآن . وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتبة للوحي ، وكتبوا له كتبا ، دعا بها الملوك والرؤساء الى الاسلام ، وكان يأمرهم بتعلم الكتابة " .

ولا يقتصر تعليم الكتابة على الرسم بالقلم ، فالمعنى الذي أشار إليه القرآن أوسع من ذلك ، ولذلك يستطرد الإمام قائلا : قد تطلق الكتابة على العلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ (الطور: ٤١) أي يعلمون ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذا بن جبل " إني بعثت اليكم كاتبا " قال إبن الأثير في غريب الحديث أراد عالماً ، سُمِّى بذلك لأن الغالب على من كان معلم الكتابة أن عنده علما ومعرفة " [٢] .

هذه الغاية أوسع وأشمل أيضا من مجرد تعلم الرسم بالقلم ، وإنما تشمل أيضا تعليم الانسان البيان ، فقد أوتي الإنسان قدرة التعلم ومنها قدرة البيان ﴿ الرحمن • علم

١- الإمام محمد عبده فى محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، جـ١، ص ٣٢ .

٢- ابو العباس أحمد القلقشندى : صبح الأعشى وصناعة الانشاء ، ص ٥٣ .

القرآن • خلق الانسان • علمه البيان ﴾ (الرحمن : ١-٤) ، وفي ذلك تقول بنت الشاطىء " وكل استعمال المادة (ب ي ن) بمختلف صيغها ، يدل دلالة صريحة على الوضوح والإبانة الكاشفة ، والبينة الحجة الواضحة الملزمة . ومن هنا يختلف البيان عن مجرد النطق الصوتي [١] ، فالبيان قدرة الإنسان ، أما النطق فهو عام ، فالطير أو الحيوان ينطق ، يقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن ، النطق الأصوات المقطعة يظهرها اللسان ، وتعيها الآذان ، ولا يقال للحيوان ناطق إلا مقيدا أو على التشبيه " . وليس مجرد النطق الصوتي مناط إنسانية الإنسان [٢] ، فليست آلية جهاز النطق أو السمع أو البصر هي التي تميز الإنسان ، بل بيان الإنسان في منطقه ، ووعيه في سمعه ، وتميزه وهدايته في سمعه وبصره هي ما تميز به ، انظر إلى قوله تعالى في ذم الكافرين ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها• أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (الأعراف : ١٧٩) . ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء • صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾ (البقرة : ١٧١) . ويشمل ذلك البيان انفعال الإنسان بالبيان ، وتذوقه إياه، ووسيلته الى التعلم ومواصلة التفكير " [٣] .

تاريخ الدعوة النبوية منذ بدء الرسالة يؤكد هذه الغاية وجوبا على كل مسلم ، وحقا له على الدولة ، فقد ذكر أبو الحسن بن محمد [٤] المعلمين في عهد النبوة ، وذكر منهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، كان يعلم أهل الصفة القرآن ، وهو أحد النقباء الإثنى عشر ، وقد خرّج أبو داود عن عبادة بن الصامت قوله : " علمت ناسا

١- عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطىء : " القرآن وقضايا الإنسان ، ص ٥٥ .

٢- عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطىء :المرجع السابق ، ص ٥٥ .

٣- عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطىء : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

٤- أبو الحسن على بن محمد : الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، ص ٧٠، ٧١ .

من أهل الصفة الكتاب والقرآن ، فأهدى الى رجل منهم قوسا ، فقلت : ليست لي ، فقال : ارم عليها في سبيل الله ، فقلت : لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلأسألنه ، فأتيت فقلت يا رسول الله : رجل أهدى إليَّ قوسا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن ، وليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله ؟ قال إن كنت تحب أن تُطوق طوقا من نار فاقبلها " [1] . وفي هذا دليل على أن تعليم الكتاب غير تعليم القرآن ، وأنَّ التعليم للناس حق بالمجان .

وكذلك كان من المعلمين مصعب بن عمير : لما انصرف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني الذين بايعوه في العقبة الأولى - بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يُقرءهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين وكان يسمى المقرىء بالمدينة .

ومنهم معـــاذ بن جبل : استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم إبن أسيد على مكة ، وخلف معه معاذ بن جبل ، يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن .

ومنهم عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الخزرجي البخاري ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على نجران ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب من المعلمين عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وقد كان اسمه في الجاهلية : الحكم ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وأمره أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان محسنا [2] .

يؤكد تلك الغاية التربوية حدث عظيم في تاريخ المسلمين ، وهو غزوة بدر الكبرى، حيث كان في الأسرى يوم بدر من يكتب ، ولم يكن في الأنصار أحد يحسن الكتابة ،

---

١ ، ٢- أبو الحسن على بن محمد : الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، ص ٧٠، ٧١ .

فكان من الأسرى من لا مال له ، فيُقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ، ويُخلي سبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من الغلمان [1] .

وكذلك كانت الشفاء بنت عبد الله ، أم سليمان بن أبي حتمة تعلم النساء ؛ قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب"[2] وفي رواية لأبي داود كما علمتها الكتابة ، وفي كتاب الزينة لأبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي ، وفي الحديث : علّمت رجلا من أهل الصفة القرآن والكتاب ، يعني به الخط والهجاء [3] .

يربط الشيخ عبد الحليم محمود [4] بين غاية تعليم الكتابة والحكمة وبين الحرية غاية الغايات بقوله ، " هذه الحرية وضحت أيضا في أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وهي الآية ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . هذه الاية تنص على أن القراءة - وهي هنا رمز للتعليم - لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا بإسم وطن أو بيئة ، وإنما هي باسم الله . وإذا كانت بإسم الله فإنها تفيد الشخص باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه وطنا ، وتفيد المجتمع الإسلامي العام . بل تفيد الإنسانية جمعاء ... واذا ما تجردت التربية لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو الله مصدر الخير والنور ، والذي وهب الانسان الحياة ، ووسائل هذه الحياة ، كانت خيراً له، وكانت نورا في جميع الأرجاء وفي جميع الأزمان » .

هي أيضا " اقرأ باسم ربك " يعني باسم المربي الذي أنزل دستور التربية ، وهو القرآن ، التربية التي قررها من خَلَق الإنسان ، وأحاط علما بهذا الانسان . هذه

---

١ ، ٢ ، ٣- أبو الحسن علي بن محمد : الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، ص ٧٠ ، ٧١ .

٤- الشيخ عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل ، ص ٢٠٨ - ٢١١ .

التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق ، وإنما هي ممن خلق ، وأحاط بدقائق الخلق، وعرف ما تحتاج إليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع ، وعرف الخير والشر ، فتربيته إذن قيادة على علم ، وهداية على بصيرة ، وهي من أجل ذلك كله تربية خالدة الغاية ، لا تختلف باختلاف الأزمنه والامكنة ، لأن الإنسان هو الإنسان أينما وجد وأينما كان ، لم يتبدل خلقا بخلق ، ولا تركيبا بتركيب [1] .

أما تعليم الحكمة باعتباره هدفا تربويا ، فيدفعنا لتحديد معنى الحكمة لنكون على بصيرة فيما نفعل ونحقق الغاية على وجه الصواب ، ونعلم المقصود بها باعتبارها غاية تمكينية .

الحكمة هي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها الباعث على العمل - هكذا قال الامام محمد عبده [2] - ثم قال " ومن معانيها أيضا أن الحكمة العلم وفقه القلب ، بدليل قول الله تعالى في شأن سيدنا يحيى عليه السلام ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ (مريم : ١٢) ، والحكمة بمعنى فهم الكتاب ، ومعرفة مافيه من الأحكام .والحكم يطلق في أصل اللغة على حكم العقل بإثبات شيء بشيء أو نفيه عنه قطعا ، وهو علم اليقين ، وهو يستلزم فقه العلم وفهم سره وحكمته . والمعنى الأصلي لهذه المادة المنع . قال في اللسان : والعرب تقول حكمت وأحكمت وحكمت بالتشديد بمعنى منعت ورددت، ومن هنا قيل للحاكم بين الناس حاكم ، لأنه يمنع الظالم من الظلم ، وأقول الحكم بمعنى العلم والجزم وفقه الأمور - وهو حكمتها - فيه معنى المنع ، وهو منع الاحتمالات والظنون ، فمن ليس له حكم جازم في المسألة لايكون عالما بها . وبذلك يكون الحكم هو العلم الصحيح والفقه في أمور الدين وشئون الإصلاح ولعل المراد به ملكة الحكم الصحيح في الامور " .

١- الشيخ عبد الحليم محمود : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ - ٢١١ .

٢- محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، جـ٧ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، جـ١ ص ٢٨٩ .

ثم قال في موضع آخر [1] " أما الحكمة فقد قيل هي معرفة سر كل شيء وفائدته، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ومقاصدها ، والحكمة مأخوذة من الحكمة - بالتحريك - وهي ما أحاط بحنكي الفرس من اللجام وفيها العذاران ، وفي ذلك معنى ما ضبط به الشيء ومن ذلك إحكام الأمر واتقانه - ومن هنا يبدو معنى قوله تعالى ﴿ ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

أما أبو العباس القلقشندي [2] فقد قال : أما الحكمة فهي أسرار الأمور وفقه الأحكام ، وبيان المصلحة والطريق إلى العمل بها ، وذلك الفقه الذي يبعث على العمل.

أو هي العمل الذي يوصل الى فقه الاحكام وطرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها ، لأن هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الآداب ، والعبادات .

وقال الفخر الرازي [3] " والحكمة أصلا هي الإصابة في القول والعمل ، ووضع كل شيء موضعه وقيل هي السنة ، وذلك قول أصحاب الشافعي ، وسياق الآية - يقصد الآية ١٢٩ في سورة البقرة - يدل على أن الحكمة شيء خارج عن الكتاب ، والحكمة هي الفصل بين الحق والباطل في كل أمور الحياة " .

أما أبو حامد الغزالي [4] فيقول : الغاية من العلم كله ، أو من العلوم كلها ، هي الحكمة - تعلم الحكمة . ثم يقول " والحكمة هي اكتساب المهارة الفكرية التي تؤدي إلى إدراك الفرق بين الحق والباطل في المفاهيم ، وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، بحيث لا يلتبس على الفرد شيء من ذلك .

١- محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، جـ٧ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، جـ١ ص ٢٨٩ .

٢- أبو العباس أحمد القلقشندى : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

٣- الفخر الرازى : تفسير القرآن العظيم ، جـ١ .

٤- أبو حامد الغزالى : « ميزان العمل » ، ص .

ويقول محمد الطاهر بن عاشور [1] شيخ تونس : " الحكم هو الحكمة أي العلم بطرق الخير ودفع الشر ، قال تعالى في شأن يحيى عليه السلام ﴿وأتيناه الحكم صبيا﴾، ولم يكن يحيى حاكماً أي قاضيا .

وقد أطلقت الحكمة على بعض نصوص الكتاب من العقائد والفضائل والأحكام الايجابية والسلبية ، بخاصة مايتصل بسلوك الإنسان في الحياة - افعل ولا تفعل - ومن ذلك قوله تعالى بعد أن قدم أنواعا من السلوك - بداية الجزء الثالث من القرآن، بالآية ٢٥٣ من سورة البقرة ، وحتى الآية ٢٦٠ من السورة نفسها - خاصة بالعبادة والإنفاق - ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء • ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً • وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (البقرة ٢٦٩) . ومنه أيضا الوصايا المقرونة بعلل الأمور والنهي التي جاءت في موضوعات ذكرتها سورة الإسراء ، ثم ختمت بقوله تعالى ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ (الاسراء : ٢٩) .

ومنه ما جاء في شأن لقمان إذ علمه الله الحكمة فعلّمها ابنه ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ﴾ (لقمان : ١٢) وهكذا تناولت موضوعات حياتية والسلوك الأنسب فيها . وإلي هذا يشير الحديث حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » رواه البخاري .

وقد أطلقت على سنة الرسول الكريم ﷺ في أصحابه بمعنى ما علّمه لأصحابه ، بحيث أصبحوا على هدى وبصيرة بما يفعلون وبما لا يفعلون ، وذلك فنحن نميل إلى القول بأن تعليم الحكمة هو تعليم الفرد مهارة اتخاذ القرار المناسب في الموضوع ليعمل عملاً ؛ تعليم مهارة أن يختار من البدائل بعد أن يمحص ويقلب الأمر في جميع وجوهه ، لأن

١- محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير جـ١ ، ص .

الحرية تتطلب قدرتين : القدرة على الاختيار والقدرة على تنفيذ ما تختار ، وإلا فلست حُراً . القدرة الأولى أداتها العقل ، وبغير العقل لا يتخذ الفرد قراراً ، ولا يوازن بين البدائل ، ومن هنا كان هدفا جديرا بالعناية أن نعلّم الناس كيف يفكرون فيما يتعلمون.

القدرة الثانية أداتها استعدادت الإنسان المادية ، وقوة جسمه وعضلاته ، وحسه ، وقوة نفسه ، واستعدادته النفسية من صمود ، وعزم ، وانجاز ، ... ولذلك جدير بالتربية أن تمهد للمتعلمين فرص تنمية هذه الاستعدادات ، استعداد الاختيار واتخاذ القرار ، ثم استعداد العزم ، والصبر على التنفيذ . والقدرتان نسبيتان يكتسبهما الفرد بالتعلم ، وكل منا قادر على فعل شيء بمقياس .

ومن هنا تكون الحكمة أيضا هى أن يتعلم الفرد كيف يوظف ما يتعلم لنفسه وللناس ، ففي حديث عبادة رضي الله عنه ، ما ينبه المُربِّي إلي ذلك حيث يقول النبي ﷺ [1] " يوشك أن يُرى الرجل من ثبج المسلمين قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده ، وأبدأه ، ولا يحور فيكم إلاّكما يحور صاحب الحمار الميت " أي لا يرجع فيكم بخير ، ولا ينتفع بما حفظه من القرآن كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه .

٢- غاية التزكية والتقويم الذاتي :

هدف التربية هو نمو فطرة الفرد أو حريته ، بمعنى إتاحة الفرص التي تحفظ نفسه وتزيد من عقله وصحته وماله ، ووضع ضوابط هذا النمو من نفسه وممن حوله ، لينمو النمو المتكامل الذي لا يشوبه اعوجاج ، ولا يوقفه انحراف ولا تضارب ، لأن التربية في الإسلام عملية تزكية في مجملها ، لقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾

١-ابن منظور : « لسان العرب » ، ص ١٠٤٣ .

(الشمس : ٩) ، والتزكية نماء متواصل ، بلا نهاية ، يبدأ بالوجود في الحياة ، ولا يتوقف إلا بالموت .

مادة " ز ك ا " تعني النماء ، زكا الزرع يزكو زكاء أي نما ، وكل شيء يزداد ، وينمو فهو يزكو زكاء ، والزكاة الصلاح " [١] وهكذا التربية في الإسلام تنمية ونماء وهيَ إنبات الفرد ، كإنبات النبات ، لقوله تعالى في شأن السيدة مريم ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن • وأنبتها نباتا حسنا • وكفلها زكريا ﴾ . (آل عمران : ٣٧) . وهنا نعبر عن التربية من جانب المعلم أنها رعاية تكفل للفرد أن ينمو نموا كاملا ، يحفظ له حياته، وعقله ، ويكسبه مهارات الحياة ، ليجمع له ما في العبارات الثلاث الآتية : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى • ووجدك ضالا فهدى • ووجدك عائلا فأغنى ﴾ (الضحى : ٦-٨) وهنا يبدو أيضا المعنى العملي للتربية ، فهي تؤوي المتعلم و تحفظ جسمه وعقله ، لا يخيفه ضعف ، فيضيع كما يضيع اليتيم بغير ولي ، ولا يضيعه ضلال ، وإنما يحييه عقل راجح وميزان دقيق ، فيعلمه المعلم الوزن ، والحكم ، والرشد ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل • وكنا به عالمين ﴾ (الأنبياء : ٥١) ، ويغنيه عن السؤال، فيوفر له معاشا : يعلمه الاكتساب ، ويكسبه القدرة عليه .

تزكية الأنفس بالفعل تسند الى الله تعالى [٢] لأنه هو الخالق المقدر الموفق للفرد لفعل ما تزكو به نفسه ، وهبه استعدادات فطرية لنمو جسمه وحفظه وعقله ، ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، ثم قال﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً • ولكنَّ الله يزكي من يشاء﴾ (النور : ٢١) وتسند الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بصفته معلما مربيا للمؤمنين - وهذه إشارة صريحة إلى وظيفة

١- ابن منظور : « لسان العرب » ، ص ١٠٤٣ .

٢- محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، جـ١١، ص ٢٠ .

المعلم في كل عصر - وباعتباره قدوة عملا وقولا ، يبين ما في كتاب الله من ضوابط، ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم • يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (الجمعة : ٢) وتسند إلى الفرد نفسه لكونه هو الفاعل في الواقع لما يكون سببا لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات ، وغيرها من الأعمال ، وإلى هذا الدور الذاتي من الفرد تشير الآيات ﴿قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها﴾ (الشمس : ٩-١٠) ، ﴿قد أفلح من تزكى • وذكر اسم ربه فصلى﴾ (الأعلى : ١٤-١٥) .

ولا تكون التزكية بالدعوى اللفظية ، أي بالقول دون العمل ﴿ولكلٍّ درجات مما عملوا﴾ (الأنعام : ١٣٢) ، وإنما تكون التزكية بالعمل الذي يجعل الفرد زاكيا ، أي طاهرا كثير الخير والبركة ، والتزكية بالفعل عبارة عن تنمية النفس بالفضائل ، ولا يتم ذلك إلا باجتناب الشرور التي تعارض الخير وتعوقه . ولا يتحقق ذلك إلا بتحديد ما نفعل ، ومالا نفعل ، في مواقف عملية ، لأن التربية عملية تكوين مواقف أو اتجاهات عاطفية وعقلية ، يكونها الفرد تجاه مكونات بيئته من إنسان وغير إنسان . وستكون الحياة المدرسية عملاً نمطياً عقيماً إن لم تتحرك أهدافها وعملياتها برؤية مواقعها في حياة المتعلمين ، فيتبينون القيم ، ويسعون إليها ، ولا تكون هذه القيم مجرد عواطف خيالية لا سبيل إلى تحقيقها ، بل تكون واقعا يعود عليهم بالسعادة ، ويعني ذلك أن التزكية في التربية الإسلامية إتباع منهج الله - الشريعة - في مواقف الحياة وتطبيقه، وهو يرتكز على قيم أساسها ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي • يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (النحل : ٩٠) .

التزكية عملية معاشية حياتية ، إطارها الحياة الدنيا ، والمراد بالحياة الدنيا ما تشتمل عليه الحياة من اللذات والمنافع والذوات الحسنة ، وهذا إطلاق مشهور للحياة وما يرادفها ، يفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم " ومن كانت هجرته إلى دنيا

يصيبها .. [1] " أي إلى منافع الدنيا ، وهو على حذف مضاف اشتهر به .كذلك تشير آية ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث • ذلك متاع الحياة الدنيا • والله عنده حسن المآب ﴾ (آل عمران : ١٤) إل أنَّ في جبلة الأنسان حبا للشهوات لازما ، وهو إقبال النفس على ما في المزيَّن من المستحسنات مع ستر ما فيه من الأضرار ، فهو تحسين لما ليس خالص الحسن ، فإنَّ مشتهيات الناس تشتمل على أمور ملائمة مقبولة ، قد تكون في كثير منها مضار ، أشدها أنها تشغله عن كماليات كثيرة ، فلذلك كانت كالشيء المزين ، تُغطى نقائصه بالمزينات ، هذا التزيين نتيجة إدراك الإنسان ، وهو أمر جبلي جعله الله في نظام الخلقة - حيث ذلل الله للإنسان الأنعام ، وسخر له ما في الأرض ، كذلك جبله على الشهوات خِلْقَةً لا دَعْوَةً ، وهو ميل النفس الى موضوع هذه الشهوات ، أي إلى الشيء المشتهي . [2]

هذه الشهوة قد توافق وجه الخير ، وهو الإباحة والطاعة ، وليس بلازم أن تكون للشر ، إلا إذا جعلها الإنسان وسيلة للحرام ، ولذلك يروي في الحديث عن رسول الله صلي الله عليه وسلم القول " قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوتَه وله فيها أجر ؟ فقال " أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر " . وسياق الآية السالفة يحرض أيضا الإنسان الى أن يقصد بهذه الشهوات تزكية النفس وتفضيل معالي الأمور ، وذلك واضح في قوله تعالى ختاماً لها ﴿ ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ .

١- هذا جزء من حديث رواه البخارى بدايته « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرى ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ... » .

٢- ابو اسحق الشاطبى : « الموافقات فى أصول الشريعة » ، جـ٣ ، ص ١٠٧ .

الشهوة - إذن - هي الدوافع الفطرية التي تدفع الإنسان لعمل يُبقي نوعه أو يُبقي بدنه . أما الهوى فهو تحكيم الشهوة وحدها في انجاز هذا العمل أو تركه ، أما التزكية فهي تحكيم شريعة الله في إنجاز العمل أو تركه .

الشريعة جاءت لتخرج الناس عن دواعي أهوائهم ، حتى يكونوا عباد الله إختياراً وعن طواعية ، وهذا لا يتم بوضع الشريعة على وفق أهواء النفوس ، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت . لذلك قال ربنا سبحانه ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن • بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ (المؤمنون : ٧١) ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ (المؤمنون : ٧٣) [١] . وهي تشترط القدرة في الإنسان على ما تكلفه به ، وهي لذلك لا تطلب رفع الأوصاف التي طبع عليها الإنسان ، كالشهوة الى الطعام والشراب ، ولا تزيلها أو تزيل النوازع الفطرية ، لأنه تكليف بما لا يطاق ، وإنما يطلب الدينُ قهر النفس الجنوح إلى ما لا يحل ، وإرسالها بمقدار الإعتدال فيما يحل ، وذلك فيما ينشأ من الأفعال الداخلة تحت الإكتساب . [٢]

هذه الأوصاف أو الصفات الفطرية المطبوع عليها الإنسان نوعان " نوع مشاهد محسوس كشهوة الأكل والشرب ، ونوع يثبت بالبرهان مثل العجلة ، ودليلها في قوله تعالى " خلق الإنسان من عجل " ، ومثل الغضب .

التزكية - وهي تكليف - قد تقع على الباعث لهذه الصفات ، كغض البصر أو الأمر به لمنع الشهوة الجنسية ، أو إهداء المرء أخيه شيئاً طلباً لمحبته ، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " تهادوا تحابوا " أو تقع التزكية على شيء لاحق للصفة الفطرية كطلب عدم الغضب المثير لغريزة الإنتقام ، ولذا ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم " اتقوا الغضب ، فانه جمرة على قلب ابن آدم ... الى أن قال : فمن أحس بشيء

---

١ ، ٢- ابو اسحق الشاطبي : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٠٩ .

من ذلك فليضجع وليتلبد بالأرض " .

وهكذا فإن التزكية تقع على الأفعال المثيرة لهذه الصفات أو اللاحقة لها . التزكية تقع في كل أمور الحياة " في الضرورات ، والحاجيات ، والتحسينات " .وهكذا وضع الإسلام نظاما من القيم ، يضبط به الفرد سلوكه والجماعة ، ليحقق مصلحة العباد في الدنيا والآخرة معا ، ولا تحقق هذه المصلحة مع الإسترسال في اتباع الهوى والمشي مع الأغراض ، لما يلزم في اتباع الهوى والشهوات من التهارج والهلاك والتقاتل ، وهذا مضاد لمصالح الناس ، وهذا أمر معروف بالتجارب والعادات وهو نسق شريعة الغاب .

والتزكية تقوم على العلم ، وخير العلم ما كان قطعيا أو راجعا الى أصل قطعي ، وهو في الإسلام شريعة الله في القرآن ﴿ كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ .(فصلت : ٤٢) ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (الحجر : ٩) وخير العلم أيضاً ما توافر له شرطان : شرط العموم والأطراد ، والثاني ثبوته من غير زوال . ذلك لأن العلم هو مصدر ضوابط النمو والتنمية ، وأن المقصد الأول للدين الإسلامي هو إخراج الإنسان عن داعية هواه وهو التزكية ، فاتباع الهوى مضاد للحق ، ودليل ذلك قوله تعالى﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ (محمد : ٢٤) ، ثم وصفُه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ وما ينطق عن الهوى • إن هو إلا وحي يوحي ﴾ فقد حصر الأمر في شيئين لا يجتمعان : الوحي وهو الشريعة ، أو الهوى [1] .

وهكذا ينبغي أن تكون الحياة في البيت وفي المدرسة حياة مواقف تتيح للفرد أن يلتفت الى ما فيها من أمر أو نهي أو تخيير ، لا يصدر نشاطه عن مجرد التقليد ، ولا عن مجرد الهوى ، وإلا كانت مواقف باطلة تربويا ، لأنه لابد للعمل من حامل

١- ابو اسحق الشاطبي : « الموافقات في أصول الشريعة » ، جـ١ ، ص ٧٨ - ٨٠ .

يحمل عليه ، وداع إليه ، فاذا لم يكن لتلبية الشرع أو العقل في ذلك مدخل ، فليس إلا مقتضى الهوى أو الشهوة ، أو الموات ، فالتزكية طريقها استثمار الفرد قواه العقلية وحواسه واستعداداته فى مواقف الحياة ، فإن لم يتزك عقله ويتطهر من الخرافات والعقائد الباطلة لا تتزكى نفسه بالتخلي عن الأخلاق الذميمة ، ولا يكتسب العادات الفاضلة والقيم المحمودة ، ويكون أسير الأوهام ، وأخيذ الخرافات ، يخاف في موضع الأمن ، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف ، فتزكية النفس لا تتم إلا بتزكية العقل [1].

وقد أورد القرآن في مواضع كثيرة أمثلة لمواقف تؤدي الى التزكية ، فذكر موقف إنفاق المال بقوله ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (التوبة : ١٠٣) يقول للرسول صلى الله عليه وسلم - وهو المربي - خذ من أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها صدقة معينة ، كالزكاة المفروضة ، أو غير معينة وهي التطوع ، فالصدقة ما ينفقه المرء قربة لله ، تطهرهم وتزكيهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء ، فالمطهِّر هنا هو " المعلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمطهَّر به هو الصدقة .

ويذكر القرآن بعض العادات أو السلوك كمواقف للتزكية ، فينبه الى الإستئذان ، وإلى غض البصر عن عورات الناس ، فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها • ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون • فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم • وإن قيل لكم ارجعو فارجعوا هو أزكى لكم • والله بما تعملون عليم ﴾ . ثم قال ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم • ذلك أزكى لهم • إن الله خبير بما يصنعون ﴾ (النور : ٢٧-٣٠) والتزكية هنا طريقها الأسوة الحسنة لا القهر والسطوة ، والمطهِّر هنا هو المعلم ، وهو الوالدان ،

١- محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، جـ٢ ، ص ٧٣ .

والمطهِّر به هو الإمتناع عن عمل محدد في موقع محدد . وهكذا فإن كل عمل صالح مفيد للفرد وللجماعة فيه تزكية ، مادام الفرد قام بهذا العمل عن قصد وتفكير في إطار نظام القيم .

٣- غاية الكسب والإحتراف

العمل ضميمة الإيمان بالله ، فلا يذكر الإيمان إلا ومعه العمل ، وقد أوجز الله ذلك في سورة قصيرة بليغة " والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، "ولايصلح العمل في الإسلام ولايكتمل إلا بالإيمان ، كما أشرنا فى معنى الفطرة لقوله تعالى ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ (الأنعام ٨٨) ، ولما كان الإيمان بالله هو الباب المؤدي الى الحرية المستنيرة ، ولا تتوفر الحرية لفرد لا يعمل ، لا يملك قراره ، ومعاشه ؟ لهذا أجمع العلماء على أن العمل واحد من الأصول الأساسية للدين ، وهى ثلاثة ، لخصها صاحب المنار [١] فيما يلي :

١- الإيمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن في وحدة نظامه وبديع أحكامه رباً ، إلهاً واحداً أبدعه ، وأتقنه بقدرته وحكمته بغير مساعد ولا واسطة ، فلا تأثير لغيره في شيء منه إلا ما هدى هو الناس إليه باطراد سننه في الأسباب والمسببات .

٢- الإيمان بعالم الغيب والحياة الآخرة ، وهذا ركن من أركان الأرتقاء البشري لأنه يبعث البشر الى الإستعداد لذلك العالم الأوسع الأكمل ، ويعرفهم بأن وجودهم أكمل وأبقى مما يتوهمون .

١- محمد رشيد رضا : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٣- العمل الصالح الذي ينفع صاحبه وينفع الناس ، لأن الدنيا دار عمل ، ولأن الجزاء على الايمان والعمل معاً ، ومن الغرور أن يظن فرد أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الإنتماء ؛ " حتى الإيمان فإنه لم يثبت فضله مطلقا ، بل من حيث التوسل به إلى العمل ، فهو شرط في صحة العبادات ، ووسيلة إلى قبولها ، وهو لذلك أيضا مقصود لنفسه ، ومن هنا نقول إن الإيمان عمل من أعمال القلوب ، وهو التصديق ، وهو ناشىء عن العلم ، والأعمال قد يكون بعضها وسيلة الى البعض ، وإن صح أن تكون مقصودة في أنفسها " [١] .

لفظ العمل المقرون بالإيمان لفظ عام ، تدخل تحته أنواع كثيرة من الأنشطة ، ولكنها في مجملها تحقق للفرد الفضل من الله ، وهو المال وغيره من أنواع الكسب الذي يقيم الحياة طعاما ، وشرابا ، ولباساً ، وريشاً ، كما تحقق أيضا رضوان الله ، وهو حب الله للفرد وعطفه ورضاه ، بشرط أن يقع نشاط الفرد في إطار المنهج الذي رسمه الله تعالى ، وهو ما شرعه في كتابه وسنة نبيه . فإذا خالف الإنسان المنهج ، تحقق له الجانب المادي وحده بحكم سنة الله في عباده ، وفي نواميس الحياة الدنيا ، وحبط عمله فيما يتعلق بجانب الرضا والطمأنينة في الدنيا ، والسعادة والفوز في الدار الآخرة ، تحقيقاً لقوله تعالى ، ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ ، وقوله تعالى في المشركين والكفار ﴿وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ (الفرقان :٢٣) .

أنواع العمل :

العمل نوعان ، النوع الأول فطري حيوي ، واجب التحصيل ، ناجز الحصول ، وهو عمل المرء لمعاشه يحفظ به نفسه ، يوفر أكله وشربه ، وملبسه ، ومسكنه ، عمل اقتضاه وجوده في الأرض لقوله تعالى﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾

١- ابو اسحق الشاطبي : " الموافقات في أصول الشريعة ، جـ١ ، ص ٦٩ .

(هود : ٦١) . وقد أشار الله الى هذه الأعمال ، ممتنا على الناس بما وفره لهم من استعَدادات وما سخره لهم من مخلوقات ، فقال ﴿والأرض مددناها • وألقينا فيها رواسي • وانبتنا فيها من كل شيء موزون • وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾ (الحجر : ١١-٢٠) ، فذكر نعمته على الناس في تهيئته الأرض للحياة ، وتهيأتهم هم أيضاً للعيش فيها بالعمل ، وهذا يعني أن من غايات التربية أن يتعلم الإنسان كيف يعيش ، فيوفر لنفسه معاشا ، مستفيدا بما أوجده الله من أرض وماء وحيوان ونبات وجماد ، ويوضح ذلك ابن كثير ، مفسراً الآيات السابقة قائلا " فقد صرف الله الناس في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش ، بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وبما سخر لهم من الدواب والأنعام " [١] .

ثم يشير الله أيضاً إلى شيء آخر زوَّد به الإنسان ليعمل هذا العمل ، وهو تمكينه في الأرض ، وتثبيته فيها ، فجعلها له قراراً ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، وسهل له الحركة والسعي ، وسخر له الشمس والقمر والسحاب ، فقال ﴿ ولقد مكناكم في الأرض • وجعلنا لكم فيها معايش • قليلاً ما تشكرون ﴾ (الأعراف : ١٠) ، ثم أكد العمل ، وحثه على ذلك العمل بقوله ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا • فامشوافي مناكبها وكلوا من رزقه • وإليه النشور ﴾ (الملك : ١٥) فالأرض وما فيها ذلول سهل الأنقياد لكل من حاول وجدَّ وأخذ بالأسباب .

ثم عطف الأمر بالعمل على الأمر بالتزكي في قوله " خذ من أموالهم صدقة ..." ثم قال ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ (التوبة : ١٠٥) بمعنى اعملوا لدنياكم ولأخرتكم ، لأنفسكم ولأمتكم ما شئتم ، فإنما العبرة بالعمل ، لا بالإعتذار عن التقصير ، ولا بدعوى الجد والتشمير ، لأن خيرى الدنيا والآخرة منوطان

١- أبو الفدا اسماعيل بن كثير : " تفسير القرآن العظيم " ، جـ٢ ، ص ٥٤٨ .

بالعمل ، وتذكروا أن الله ناظر إليكم ، عليم بأعمالكم ، فاتقنوا العمل واقصدوا به وجه الله ، وزكوا به أنفسكم " [1] .

ومن يؤهل الناس للمعايش ، ويعلمهم الأخذ بالأسباب ؟ ويبصرهم الطريق ؟ وقد ولدوا جهلة لا يعلمون شيئا ، ضعافا لا يقدرون على شيء كما في قوله ، ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا • وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة • لعلكم تشكرون ﴾ (الأنعام : ٧٨) . إنها التربية ، وهذا غاية من غاياتها والرسول يقول " كسب الحلال فريضة بعد الفريضة [2] ، أي العمل للحياة فريضة تالية لفريضة الإيمان فهو تكليف للفرد ، وواجب عليه أن يعمل ، ومن حقه على الدولة أن تعده لهذا العمل .

أما كونه فريضة وتكليف فواضح في قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع • ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون • فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله • واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (الجمعة : ٩-١٠) ، وكان " عراك بن مالك رضى الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف بباب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين " [3] .

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم فريضة العمل ووجوبه على كل فرد قادر بقوله : "لأن يأخذ أحدكم أحبلة ثم يأتي الجبل ، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ، فيكفَّ الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه " [4] ،

١- محمد رشيد رضا : " تفسير المنار " ، جـ١١ ص ٢٠ - ٢٧ .

٢- عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد فى الإسلام ، جـ٢ ، ص ٩٢٨ .

٣- ابو الفدا اسماعيل بن كثير : تفسير القران العظيم ، جـ١ ، ص ٣٦٧ .

٤- محمد اسماعيل البخارى : « صحيح البخارى » ، جـ١ ، ص ٢٨١ .

ثم بين أن من حق كل فرد على الدولة أن تعينه على ذلك ، وتعلمه إياه ، بفعله عليه الصلاة والسلام ، وهو المعلم الأول - فقد روى البخاري عن أنس رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله - يعني طلب منه رزقا - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء ، قال إئتني بهما ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، فأعطاها للأنصاري ، وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتني به ، فأتاه به ، فشدَّ فيه الرسول الله صلى اله عليه وسلم عودا بيده ، ثم قال : اذهب واحتطب ، وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوما ، ففعل فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة [1] .

ومن غايات التربية أن تعد الإنسان لهذه الكفاءة الإجتماعية و ليكون فعالا ، يستخدم قدراته الفطرية في عمل ذي معنى اجتماعي ، يكتسب منه ، وينفع نفسه ، وينفع به الناس ، وأن تنمي هذه القدرات الى أقصى درجة من الكفاءة ، لكي يختار ويَصنع مسار حياته بنفسه ، ويحقق في النهاية غاية غايات التربية وهي الحرية . فلا يذل لغيره ، ويكون سيد قراره .

حدد النبي صلى الله عليه وسلم الظروف القاسية التي يحل للفرد المسلم أن يسأل فيها رزقاً من غيره ، وعونا على عيشه ، وحددها بطريق الحصر تبياناً لواجب العمل الشخصي ، وحفاظا على حرية الفرد من أن ينالها ما يخدشها . حددها في الحادثة التالية :

١- عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد في الإسلام ، جـ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

" عن أبي بشر قبيصة بن المخارق قال تحملت حمالة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها ، فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها " ثم قال : ياقبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يُمسك . ورجل أصابته جائحة ، اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، أو قال سدادا من عيش ، ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجي من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت ، يأكلها صاحبها سحتاً " . [1]

وهكذا تتبين أيضاً كفالة الدولة للأفراد القادرين علي الكسب إذا أصابهم العجز الطارىء ؛ فالحمالة أن يقع قتال ونحوه بين فريقين ، فيصلح إنسان بينهم على مال يتحمله ويلتزمه على نفسه ؛ والجائحة الآفة تصيب مال الإنسان فتهلكه ؛ والقوام هو مايقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه ؛ والسداد ما يسد حاجة المعوز ويكفيه ؛ والفاقه الفقر ؛ والحجي العقل .

وهكذا العمل تكليف للفرد ، تؤهله له التربية ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داوود - صلى الله عليه وسلم - كان يأكل من عمل يده " [2] - هذا العمل التكليفي هو الإحتراف ، بمعنى العمل في صنعه ، أو حرفة ، أو تجارة أو زراعة .... الخ ، من هذه الأعمال التي تمكنه من تحصيل مقومات الحياة مالاً ، وطعاماً ، ولباساً ، وسكناً ... الخ .

النوع الثاني من العمل هو العمل المجتمعي ، الذي يقوم به الفرد باعتباره عضوا

١- مسلم بن حجاج بن مسلم القشيري : « صحيح مسلم بشرح النووى » جـ١ ، ص ٢٥٩ .

٢- محمد اسماعيل البخارى : " صحيح البخارى " ، جـ١ ، ص ٢٩٢ .

في جماعة ، مسؤولاً عنهم كما هو مسؤول عن نفسه . ولقد أوضحت الآية السابعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة هذه الأعمال بعد أن ذكرت الأصلين الأول والثاني في الدين - وهما الإيمان بالله ربا واحدا ، والإيمان باليوم الآخر والملائكة والنبيين وكتبهم ، وهما من أعمال القلب - ذكرت أعمالاً هي : إنفاق المال في مواضع ستة، وتزكية النفس بالصلاة ، والزكاة تمهيداً لحسن الإجتماع ، والوفاء بالعهود الدينية والمالية والحربية ، والصبر في مواقف الشدة الثلاثة ، واحتمال المكروه فيها بنوع من الرضا والإختيار حتى تنقضي ، هذه الأعمال في جملتها هي الأعمال التي تتضمنها مسؤولية الفرد الإجتماعية والتي تدربه على تحمل هذه المسؤولية - وهكذا تنطق الآية بها على أنها أعمال البر التي تدل على صدق إيمان من يؤديها ، ثم سبيلاً لفلاحه . فتقول الاية : ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب • ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين • وآتى المال على حبه ذوى القربى اليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب • وأقام الصلاة وآتى الزكاة • والموفون بعهدهم إذا عاهدوا • والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس • أولئك الذين صدقوا • وأولئك هم المتقون﴾ (البقرة : ١٧٧) .

هذان الصنفان من الأعمال ، الحيوي والمجتمعي ، يكمل كل منهما الآخر في الوسائل والغايات ، يبدأ كل منهما حيث ينتهي الآخر ، وينتهي حيث يبدأ . الفرد يسعى بحرفته أو صنعته ، باذلاً جهداً ، فيصيب خيراً من مال أو قوة أو سلطان ، ثم ينفق بعض هذا الخير لقريب أو مسكين باذلاً جهداً نفسياً ، فيصيب حباً وأمناً ، فيزداد قوة ، فيعمل بحرفته فيصيب خيراً ، وهكذا ينفقه في سبيل الله في دفاع عن وطنه ، فيزداد أمناً وسلامة ، واطمئناناً ، فيعمل بحرفته ، وهكذا دواليك .

لهذا التكامل ، ولضرورة هذه الأعمال لم يفصل الله بينها وبين أعمال العبادات من قراءة قرآن ، أو صلاة ، أو حج ، بل نبَّه المسلمين الى الموازنة بينها ، فأباح للمسلم

أن يسعى لكسب معاشه أثناء حجه ، وقال ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم • فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ (البقرة : ١٩٨) ، وأباح للناس نوعاً من الصيد في الحج حتى يقتاتوا ويحفظوا حياتهم ، فقال: ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة • وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما • واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ (المائدة : ٩٦) .

ثم قال في شأن القيام بالليل وصلته بأداء هذه الأعمال الحيوية والمجتمعية مخففاً عن المسلمين من عنـــاء قيام الليل استعداداً للعمل بالنهار ، قال : ﴿ والله يقدر الليل والنهار • علم أن لن تحصوه فتاب عليكم • فاقرأوا ما تيسر من القرآن • علم أن سيكون منكم مرضى • وآخرون يضربون في الأرض • يبتغون من فضل الله • وآخرون يقاتلون في سبيل الله • فاقرءوا ما تيسر منه • واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة • وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ (المزمل : ٢٠)

عمل الإنسان إما مصلحة أو مفسدة ، والمصلحة إما أن تكون مصلحـــة لحياته الدنيـــا ، أو مصلحة للدار الآخرة ، وهو مأمور من الله بها ، لكليهما ، ويتأكد الأمر بها على قدر مراتبها في الحسن والرشاد ، إذا عظمت المصلحة أوجبها الرب في كل شريعة .

المصالح الدنيـــوية منها ناجزة الحصول ، كمصلحة المآكل والمشارب والملابس والمساكن ، والمراكب [١] ، ومن المصالح ماهو فرض عين كتعلم ما يتعين تعلمه من حرفة أو صنعة وأحكام الشريعة ؛ والمقصود بفرض العين حصول المصلحة لكل واحد من المكلفين على حدته [٢] .

---

١ ، ٢- عز الدين بن عبد السلام السلمى : قواعد الأحكام فى مصالح الأنام ، جـ١، ص ١٠ -٥١ .

" ولا تعرف المصالح التي تفيد الإنسان في دنياه وآخرته ، وبالتالي الأعمال المؤدية إليها ، إلا بالشرع ، بكتاب الله وسنة رسوله . أما المصالح الدنيوية فقط وأسبابها ، ومفاسدها فطريق معرفتها وتحديدها هي التجربة والعادة والظنون المعتبرات، فإن خفى شيء من ذلك طلب من أدلته ، وعلى الإنسان أن يعرض ذلك كله على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به ، ثم يبني حكمه ، فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ، ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته [1] ، وعلى ذلك فمعظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروف بالعقل " .

من الفقرتين السابقتين يتبين أن على رجال الدولة وعلماء التربية معاً أن يقرروا الأعمال التي ينبغي أن يكلف بها الفرد فيتعلمها فرض عين ، ويدخل فيها تلك الأعمال التي سبقت الإشارة إليها باعتبارها أعمال المعاش وأعمال سلامة المجتمع وأمنه وتماسكه كما بيَّنتا أيضا ، بالإضافة الى هذا ، مبدأ آخر هاما ، يقرره الدين الإسلامي ، وهو وظيفة العلم .

ووظيفة العلم تشير إلى نوع الأعمال التي ينبغي أن تتوجه إليها التربية فلسفة وطريقة " فكل مسألة علمية لا ينبني عليها عمل - ولو بعد حين - فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي ، وأعني بالعمل عمل القلب (العقل) وعمل الجوارح ، من حيث هو مطلوب شرعاً " [2] ، هذه الأعمال كلها ليست فرض عين، ولكنها تتنوع بتنوع الظروف والأفراد والمجتمعات .

الدليل على ذلك استقراء الشريعة ، " فإنا رأينا الشارع يُعرض عما لا يفيد عملا مكلفا به ، ففي القرآن الكريم ﴿يسألونك عن الأهلة • قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (البقرة :١٨٩) فوقع الجواب بما يتعلق بالعمل إعراضا عما قصده السائل عن الهلال :

١- عز الدين بن عبد السلام السلمى : قواعد الأحكام فى مصالح الأنام ، جـ١، ص ١٠ -٥١ .

٢- أبو أسحق الشاطبى : الموافقات فى أصول الشريعة جـ١ ، ص ٤٦ .

لِمَ يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط ، ثم يمتلىء حتى يصير بدراً ، ثم يعود إلى حالته الأولى ، وهذا أليق بحال المتعلم " [1] ، وهكذا لما سئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الساعة ، قال للسائل : " ما أعددت لها " ؟ إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها فيه فائدة ، ولم يُجبه عما سأل [2] .

إنما نعلم الناشئة ليعملوا ، وروح العلم هو العمل ، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به ﴿ وإنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر : ٢٨) وقال ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ (يوسف : ٦٨) ، وفسرها قتادة بقوله : " يعني لذو عمل بما علمناه " . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال ، وذكر منها " وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ رواه الترمذي . فالعلم بوجود الله والإيمان به يستوجب أو يعني المحافظة على الحرية التي تتطلبها عبادته وحده، ولا تأتي هذه الحرية بغير عمل يستغني به الفرد عن الناس .

٤- غاية طلب العلم :

هى غاية تعليم الفرد كيف يتعلم ، وهي الغاية التي تضمنها قول الله تعالى في بيان وظائف المربي الأول - الرسول صلى الله عليه وسلم - ممتنا بذلك على المؤمنين: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم أياتنا • ويزكيكم • ويعلمكم الكتاب والحكمة • ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (البقرة : ١٥١) ، وهي استثمار للإستعداد الفطري عند الإنسان الذي أشار اليه الله في أول سورة أنزلت من القرآن بقوله ﴿ علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق : ٥) .

٥- أبو أسحق الشاطبى : الموافقات فى أصول الشريعة جـ١ ، ص ٤٦ .

٦- محمد اسماعيل البخارى : « صحيح البخارى » .

ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون مع الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم يسبق لكم به علم من شئون العالم ونظام البيوت والمعاشرة الزوجية وسياسة الحروب والأمم ... الخ ، وقال الإمام محمد عبده ، " ويصح أن يراد ما لم تكونوا تعلمون من شئون أنفسكم والسنن الإلهية الحاكمة فيكم ، فالتعليم ليس محصوراً في الكتاب ، بل هناك زيادة أعد الله تعالى نبيه لتبيينها " [1] وهكذا توجد أمور وتقع أحداث في الحياة خاصة وفي الكون عامة ، وتَجِدُّ أحداثٌ تجعل التعلم والوقوف على أسرارها ، وكيفية معالجتها ، ضرورة ، ولذلك مثلٌ واضح فيما جد من حالة الخوف ، والحرب ، في وقت النبي صاحب الرسالة ، فتعلَّم المسلمون كيف يواجهون هذا الحدث الجديد ، وتعلموا فيه صلاة الخوف ، وقال فيه الله تعالى : ﴿ فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (البقرة : ٢٣٩) أى علمكم بتوجيه من الرسول كيف تعبدون وتصلون له في حال استجدت عليكم وهي حالة الخوف [2] ومثال آخر ورد في سورة النساء خاص بالإنتصار للعدالة ، وهو حادث بنى أبيرق ، حيث حاولوا اتهام شخص يهودي برىء بجريمة اقترفها واحد منهم ، هو طعمة بن أبيرق ، فسلك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلكاً علَّم الناس به كيف يكون الإنصاف ، وفي ذلك جاءت الآية تقول : ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك • وما يضلون إلا أنفسهم • وما يضرونك من شيء • وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة • وعلَّمك ما لم تكن تعلم • وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (النساء : ١١٣) .

وهكذا سنن الله في الكون عديدة متجددة ، والعلم غير محدود ، وهو لازم للإرادة الحرة المستنيرة التي منحها الله الإنسان ؛ وكون هذا العلم لازم لهذه الإرادة الحرة، وكونه أيضاً لا يكتسب إلا بالتدريج ، يقتضي التعلم . هذا العلم الواسع لا يعطاه الفرد ولا مجموعة الناس دفعة واحدة ، وكلما أوتى الفرد نصيباً من العلم ظهر

---

١ ، ٢- محمد رشيد رضا : " تفسير المنار " ، جـ٢ ، ص ٢٦ ، ص ٢٥٢ .

له من جهله ما لم يكن يعلم ، وكلما أعطى حظاً من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله، فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهي إلا قليلا ، لقوله تعالى : ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله إنَّ الله عزيز حكيم ﴾ (لقمان : ٢٧) ولذلك لزم التعلم ليحيط الإنسان بوجوه المصالح والمنافع ، فقد يوجه الإرادة الى خلاف المصلحة والحكمة .

التعلم هو الدخول في العلم ، ولذلك يُسمَّى الفرد متعلما ، وعلمته الشيء فتعلم، وهناك فرق بين أعلم الإنسانُ غيرَه فيكون الأعلام ، وهو الوقوف على شيء ، فيعلم الفردُ ما جهله ، وبين علَّم الإسانُ غيرَه ، فيكون التعلم ، وهو معرفة الشيء وسره ، فيكون الفرد متعلماً بذاته . وهذا هو جوهر هذه الغاية التربوية .

" أودع الله في نفس الإنسان علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (البقرة : ٣١) ، فالمراد بالأسماء المسميات ، عبر الله عن المدلول بالدليل ، لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الإنتقال من أحدهما للآخر ، والعلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات نفسها ، لأن الألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات ، تتغير وتختلف ، والمعنى لا تغير فيه ولا إختلاف " [١] .

هذا الإستعداد للتعلم موجود عند الناس كلهم ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف كل الناس الأسماء من أول يوم يولدون فيه ، ولكن يكفي في ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والإستدلال ، هذا هو وظيفة التربية .

يولد الإنسان وليس له من قوة إلا الصراخ بالبكاء ، ثم تزداد قدرته بالتدرج البطيء بالنسبة لغيره من الحيوان ، ويُعطي قوة العقل تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على ما حوله من الكائنات ، فيسخرها ، ويذللها كما يشاء ، هو

١- محمد رشيد رضا : " تفسير المنار " ، جـ٢ ، ص٢١٨ .

بذلك يتفوق على كل ما وُهِب للحيوان في أصل الفطرة من مواهب بلا كسب في تحصيل طعامه وشرابه ، فالإنسان بهذه القوة غير محدود الإستعداد ، ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ، ولا محدود العمل . فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله . ثم أعطاه الله على يد الرسل الكرام أحكاماً وشرائع حدَّ له فيها لأعماله وأخلاقه حدودا ، لأن الحـــواس والعقل وحدها لا تكفي لسعادة البشر . ﴿ الذي أحسن كلَّ شيء خلقه • وبدأ خلق الإنسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين • ثم سواه ونفخ فيهِ من روحه • وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة • قليلاً ما تشكرون ﴾ (السجدة : ٧-٩) ، فغاية التربية إذن هي تربية الحواس ، وتربية العقل ، مهتدية بدين الله في الحكم . وبهذا يستحق الإنسان الخلافة في الأرض ، هذه الغاية تظهر آثار الإنسان في خلافته على الأرض في عجائب صنعه في المعدن والنبات والبر والبحر ، يتفنن ، ويبدع ، ويكتشف ، ويخترع، ويجد ، ويعمل ، حتى غيرَّ يغير شكل الأرض ، ويجعل الوعر سهلا ، والماحل خصبا ... الخ . أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أن جعل الإنسان بهذه الاستعدادات خليفته في الأرض ، يقيم سننه ، ويظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه ، وقد خلقه في أحسن تقويم ؟

لهذه الغاية التربوية - غاية تعليم الفرد كيف يتعلم - معنى اجرائي عملي توضحه الآيات التالية : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا • وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة • لعلكم تشكرون ﴾ (النحل : ٧٨) ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد • كل أولئك كان عنه مسؤلا ﴾ (الإسراء : ٣٦) ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس • لهم قلوب لا يفقهون بها • ولهم أعين لا يبصرون بها • ولهم آذان لا يسمعون بها • أولئك كالأنعام بل هم أضل • أولئك هم الغافلون ﴾ (الاعراف : ١٧٩) فهي تعني أن يتعلم الفرد كيف يستخدم

حواسه وعقله ، ويلاحظ الظاهرات كيف تحدث ؟ ومتى تحدث ؟ ولماذا تحدث ؟ ويربط بين مكوناتها ، وبين أسبابها ومسبباتها ، فيفقه سرَّها ، فيتعلم بعد جهل ، كما أشارت الآية الأولى ؛ ويكون مسؤلاً عن كل مايفعل أو يلاحظ أو يستنتج ، كما أشارت الآية الثانية ؛ ثم يكون دارياً بالكائنات حوله ، واعياً بما ينشأ من تواجدها من مشكلات، فيربط بين المقدمات والنتائج ، فلا يكن من الغافلين ، فالعلم بالتعلم ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وليس العلم بكثرة الحديث ، ولكن العلم بالخشية " ، كما رُوِي عن ابن مسعود رضي الله عنه [1] وإلى ذلك تشير الآية ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها • أو آذان يسمعون بها • فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (الحج : ٤٦) .

المسألة اجتهاد من جانب الفرد ، تتضح فيه أيجابيته ، ولذلك ذمّ الله من غضب عليهم بقوله " لهم قلوب لا يفقهون بها " ، ولم يقل ليس لهم قلوب ، ولم يقل أيضا " لهم قلوب لا تفقه ، لبيان أنهم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور ، واكتناه الحقائق مع أنهم قد منحوا القلوب المستعدة لذلك " [2] . فليس التعلم هنا هو الحفظ ولا مجرد تلقي المعلومات من الغير .

القلب أو العقل يفقه ، وفقه الشيء هو العلم به وفهمه ؛ وفسروه في جل المعاجم أو كلها فقالوا : فَقِه كعلم وفَهم وزناً ومَعنًى . وقال الراغب : الفقه هو التوصل بعلم شاهد الى علم غائب ، ويُعقِّب على ذلك السيوطي بقوله : الفقه أخص من العلم . وقد ذكرت مادة فقه في القرآن الكريم في عشرين موضعا ، تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم والتعمق في العلم الذي يترتب عليه الانتفاع به ، وأظهره نفي الفقه عن الكفار والمنافقين ، لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى عنهم ،

١- ابن منظور : " لسان العرب " ص ٣٠٨٣ .

٢- محمد رشيد رضا : " تفسير المنار " جـ ٩ ، ص ٣٥٢ .

ففاتتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم المتمكن من النفس " [1] .

فقه العقل معناه أن يدرك الفرد العلاقات والمعاني التي تحويها الآيات الكونية ، ما أشير إليه منها في القرآن ، وما لم يُشر إليه من سنن كونية وتشريعية واجتماعية ، ويدرك المعنى من حيث علاقتها بالدين والدنيا ورقى النفس ورقى الانسانية ، ومن حيث العبرة فيها وصولاً الى الحرية الكاملة ، ففقاهة الأمر تقتضي العمل بموجبه .

كذلك العين ، والأذن ، فكثير من الناس لهم عيون ولكن لا يبصرون بها ، ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها ، أي لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها الى التأمل والتفكر فيما يرون من الظواهر والسلوك ، وآيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من أخبار التاريخ الدالة على سنن الله في خلقه ، فيهتدوا بكل منها الى ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم . فإن الآذان قد خلقت لتفيد الانسان من كل ما يسمع ، لا من القرآن فقط ، كما أن الأبصار خلقت للانسان ليفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك على كمال بتوجيه إرادته الى استعمال كل منها فيما خلق له . هذا هو وظيفة التربية ، تُعلِّم الفرد كيف يلاحظ ؟ وكيف يسمع ؟ وكيف يجرب ؟ ويصل بين المسموعات والمرئيات برباط . وهكذا قال تعالى :﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم • إن في ذلك لآيات • أفلا يسمعون ؟ أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز • فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ (السجدة:٢٦-٢٧) .

فالغاية من التربية أن يتعلم الفرد كيف يكون منتبهاً فطناً لكل ما يدور حوله من ظواهر وعمليات ، وهذه صفة المبدعين ، فهم لا يقنعون بالنظرة العابرة ، ولا السماع الطائش ، بل لا يعرضون عما يرون ، ولا يلههم الهوى عما يسمعون ، ولا الملذات عما يشهدون ، ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ (الأنفال :

١- محمد رشيد رضا : " تفسير المنار " جـ٩ ، ص ٣٥٢ .

٢١) ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم • وأولئك هم الغافلون ﴾ (النحل : ١٠٨) .

كذلك يقتضي التعلم ، تقصي أسرار ما نتعلم ، وسبر أغواره ، والوصول الى الحكمة من كل ظاهرة ، وعدم الوقوف عند مظاهرها التركيبية ، ومكوناتها المادية ، وأسبابها ، وإنما يتعلم المتعلم ويتدرب على استنباط الحكمة منها ، مهتديا بخالقها ، الذي وهبه الحرية ، غاية الغايات ، طريقاً الى السعادة في الدنيا والآخرة . فلا يقف بحث المتعلم في الظاهرة عند منافع الأشياء للانتفاع بها في الدنيا من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً ، مدبراً عليماً ، حكيماً ، مريداً ، قديراً ، رحيماً يجب أن يُعبَد وحده ، وأن يُخشَى وحده ، وأن تكون غاية الغايات هي رضاه وحده. لأن إرادة التعلم لمجرد الوقوف على الأسباب والمسببات والسر فيها ، واستنباط حقائق العلم ونفعه المادي فقط يؤدي الى استعمال العلم فيما يضر الانسان ، ويدمر العمران ، ويستعبد الألوف من البشر ، فينفي غاية التربية ، وهي الحرية لكل فرد على وجه الأرض .

لذلك يكون من يتعلم العلم باستخدام أدواته من حواس وعقل استخداماً صحيحاً ، ويقف عند هذا الحد من منافع الحياة الدنيا ولذاتها غافلاً عن الحرية له وللجميع داخلاً فيمن وصفهم الله بقوله : ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (الروم : ٧) . وقد جمعت آية الاعراف هؤلاء بقول الله سبحانه وتعالى ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس • لهم قلوب لا يفقهون بها • ولهم أعين لا يبصرون بها • ولهم آذان لا يسمعون بها • أولئك كالأنعام بل هم أضل • أولئِك هم الغافلون﴾ (الاعراف : ١٧٩) .

هذه الغاية من التربية غاية أن تربي المتعلم ليتعلم ما لم يعلم ، تربية حرة استقلالية يُعمِل حواسه ، ويُعمِل عقله ، هي على النقيض مما يجري في كثير من دور العلم ، حيث يبني بعضها التعلم على اعتقاد سابق ، وفِكرٍمُبيَّت قد يكون باطلا في كثير من الأحيان ، أو يبني بعضها التعلم على ترديد ما سبق به الأولون او القدامى من العلماء دون التفات من المعلم والمتعلم الى الحق فقط والبحث عما هو صواب . هذا الاتجاه يورث المتعلم مراناً ، يُعوِّده عادة استحسان ما يلقن ، وقد يكون فاسداً .ويُفقده الحافزَ والدواعي والأسباب التي تعطفه الى النظر والفكر ، ولا يدخل عقله إلا ما رسخ فيه ، ولا يسمع سماع تأمل وتفقه ، ولا تدرك عينه وأذنه شيئاً حيث فقد حقيقة عملية التعلم ، وحُرِم من فوائد حواسه ، وهكذا يضعف عقله ويفسد بفساد التربية .